دراسة استطلاعية حول تشجيع الثقافة المغربية على الابتكار

أيوب صهران
باحث في السوسيولوجيا

تمهيد:

لقد اختص الانسان بعملية الابتكار دون سائر الكائنات الاخرى، وهي ظاهرة إنسانية وسلوكية تتضمن الجهد والطاقة والتفكير، وتتأثر بعوامل نفسية واجتماعية.

ترتبط هذه الظاهرة اشد ارتباط بالثقافة بشكل عام والثقافة المغربية على وجه التخصيص، لكون الانسان يرتبط بالظروف الثقافية والاجتماعية المحيطة به، والتي تسهم في تنمية سماته السيكو- سوسيو- ثقافية لديه ابداعا وابتكارا.

إن الثقافة باعتبارها وعاء اجتماعي، تتضمن روافد متعددة ومتنوعة، سواء المادية او اللامادية، هناك من يمركزها في إطار تشجيع الابتكار وآخر يمركزها كعائق.

ومن خلال هذا المنطلق اقترحنا الغوص في دراسة استطلاعية حول مدى تشجيع الثقافة المغربية للابتكار، ذلك بالاعتماد على المنهجية العلمية الرصينة في البحث السوسيولوجي.

مفاهيم الدراسة الاستطلاعية:

تعريف الثقافة:

هناك تعاريف كثيرة للثقافة اختلفت باختلاف نظرة الباحثين وفلسفتهم في الحياة، ومعتقداتهم التي يدينون بها، ونعترف انه من الصعب الاتفاق على نوع واحد من التعاريف، لذا سنعرض اهم هذه التعاريف:

لقد عرف إدوارد تايلور E Taylor في كتابه الكلاسيكي "الثقافة البدائية" Primitive Culture عام (1871) الثقافة بأنها هي" ذلك الكل الديناميكي المعقد الذي يشتمل على المعارف، والفنون، والمعتقدات والأخلاق، والقوانين، والتقاليد، والفلسفة، والأديان، والعادات التي اكتسبها الإنسان من مجتمعه بوصفه عضوا فيه".[1]

الثقافة المغربية:

ان الثقافة المغربية هي وعاء يشمل جملة من الروافد المختلفة والمتنوعة، والتي تتعايش في سلم وسلام، بحيث نجد تلاقح ثقافي، وتوافق بينها، وتتكون من ثقافة مادية واخرى اللامادية، فمنها ما هو اصيل عريق واخر جديد حداثي.

مفهوم الابتكار:

هناك اختلاف وخلط معرفي ببن الابداع (créativité) الاختراع (invention) والابتكار، لكن عموما يرتبط تعريف الابتكار بثلاث مستويات مختلفة، السمات الشخصية، انتاج الشخص، ثم العملية الابتكاري.

من بين تعاريف الابتكار التي تعرف بناءً على سمات الشخصية، نذكر تعريف سيمبسون الذي عرفه بانه المبادأة التي يبديها الفرد في قدرته على التخلص من السياق العادي للتفكير، وإتباع نمط جديد من التفكير، كما أشار سيمبسون إلى ضرورة أن نهتم في بحثنا عن المبتكرين بنمط العقول التي تبحث وتركب وتؤلف كما رأى أن

1- أحمد محيى خلف صقر، العوامل الثقافية و الاجتماعية وتأثيرها على الخطط الاستراتيجية لتشغيل الشباب في بعض دول العالم : دراسة تحليلية وميدانية، دار التعليم الجامعي، 2019، مصر، ص53.

مصطلحات، مثل: حب الاستطلاع والخيال والاكتشاف والاختراع هي مصطلحات أساسية في مناقشة معنى الابتكار.[1]

اما تعريف الابتكار على أساس الإنتاج، فنجد روجرز Rogers الذي قدم تعريفاً جاء فيه: " أن الابتكار ظهور إنتاج جديد نابع من التفاعل بين الفرد ومادة الخبرة".[2]

أيضا نجد النوع الثالث من التعريفات فيعرف الابتكار على أنه عملية ويمثله تعريف ماكينون الذي رأى بأن " الابتكار عملية تمتد عبر الزمن وتتميز بالأصالة والقابلية للتحقق". ويعرفه تورانس" بأنه عملية إدراك الثغرات والاختلال في المعلومات والعناصر المفقودة وعدم الاتساق الذي لا يوجد له حل متعلم، ثم البحث عن الثغرات ووضع للفروض واختبارها، والربط بين النتائج، وإجراء التعديلات وإعادة اختبار الفروض، ثم نشر النتائج وتبادلها".[3]

اما في نظرنا فتعريف الابتكار " هو ذلك النتاج الابتكاري الذي يبنى انطلاقا من الخصوصيات المحلية المجالية للشخصية المبتكرة، ويعمل بكفية دالة او خفية على تنمية جوانب التجديد، التنمية، التطوير والابداع، بالاعتماد على السمات السيكو- سوسيولوجية للشخص المبتكر، ويركز على متطلبات العصر الرقمي، وتكون له قيمة جلية في السياق الاجتماعي، الثقافي ....".

الإجراءات المنهجية للدراسة الاستطلاعية :

وعليه، بناء على النتائج العامة لهذه الدراسة الاستطلاعية، تم استخلاص ثلاث مداخل لعرض ومناقشة النتائج ترتبط ارتباطا وثيقا بالعلاقة بين الثقافة المغربية والابتكار، نغني بها هذا الموضوع.

لكن اولا لا بد من توضيح الإجراءات المنهجية لهذه الدراسة الاستطلاعية التي انطلقت من الاسس التالية؛

المنهج: تنفيذا للسياق المنهجي المتعارف عليه في ادبيات علم الاجتماع ميدانيا، فقد تم اختيار منهجين هما؛

أ. المنهج الكمي بهدف جمع المعطيات ومقاربها كميا بغية التوصل إلى نتائج بشكل علمي، على اعتبار هذا المنهج وسيلة للتحقيق والبحث الاجتماعي يعمل على مقاربة الموضوع وتحديده إحصائيا، ويساعد على تصنيف وترتيب المعطيات بيانيا لضبط المتغيرات قياسيا، وتحليلها وفق ما تم تقديمه من خلال الواقع المعيشي، فيتم استخدام الأعداد والأرقام للوصول الى نتائج أكثر دقة وموضوعية، تعنى بفهم الظواهر والعلاقات السببية بينهم، ذلك بالاستناد على أحدث البرامج العلمية الحديثة، والذي سنعمل به لتحليل المعطيات الكمية.

ب. المنهج الكيفي الذي يمكننا من النفاذ الى صلب الواقع الاجتماعي بما يفكك ويفتت كل ما هو خفي وظاهر ويعزز استنطاق المعطيات بطريقة مباشرة وتفاعلية.

الأداة: رغبة منا في استنطاق معطيات الموضوع من الميدان، فقط اخترنا الاستمارة المغلقة- المفتوحة، اما تصميمها فقد جاء بناء على محاولة تحقيق الحياد العلمي.

مجتمع وعينة الدراسة: ان مجتمع البحث هو المبتكرين المغاربة ذكورا واناث، اما عينة البحث بما انها هي تمثيل دقيق لمجتمع الدراسة المدروس، واستحضارا لجملة من الشروط الموضوعية المرتبطة بما هو زمني ومجالي ومادي ومجهود ذهني، ورغبة منا في الوصول الى معلومات ضرورية ومتنوعة، عمدنا الى اختيار العينة " القصدية الغير الاحتمالية"، نظرا لما لها من تصميم يأسس انطلاقا من خطوات محددة ودقيقة. لذا فعينة الدراسة هم 10 مبتكرين

1- أسامة خيري، إدارة الابداع والابتكارات، دار الراية للنشر والتوزيع، الطبعة الاولى، 2012، عمان، ص 67.

2- أسامة خيري، إدارة الابداع والابتكارات، دار الراية للنشر والتوزيع، الطبعة الاولى، 2012، عمان، ص68.

3- المرجع نفسه، ص 68.

ذكورا واناث، من جهة الرباط - سلا - القنيطرة".

حدود ومجالات الدراسة :

الحدود البشرية: هو ما تم تحديده في عينة البحث المختارة.

الحدود المجالية: المغرب، جهة الرباط سلا القنيطرة.

الحدود الزمنية: تاريخيا منذ تأكيد موافقتنا على موضوع البحث الى 30 مارس 2026.

الحدود الموضوعية: فهي في خضم العلاقة ببن الثقافة المغربية والابتكار ومدى التشجيع.

عرض، تحليل ومناقشة نتائج الدراسة الاستطلاعية :

ان النتائج المحصل عليها ارتبطت كما سبق الذكر بثلاث مداخل مركزية:

المدخل الأول : السمات السيكو- سوسيولوجية للمبتكرين :

ان هذا المدخل يركز على القائم بهذه الأفعال والمؤدية إلى النتاج، أي السمات السيكوسوسيولوجية للمبتكرين، ونستحضر بهذا الخصوص (ماسلو) الذي يميز بين نوعين من الابتكار:

ابتكارية الموهبة ويقصد بابتكارية الموهبة تلك القدرة التي تعتمد أساسا على الموهبة الخاصة، وهي التي تظهر ثمراتها في إنتاج الأعمال العظيمة، تلك الأعمال التي لا تعتمد فقط على الإلهام وخبرة القيمة، بل تحتاج بجانب الموهبة الخاصة إلى العمل الجاد المتواصل والتدريب المستمر والنظرة الناقدة، ثم ابتكارية تحقيق الذات الذي يسميه بالابتكارية الأولية وهي تلك التي تتميز بالقدرة على التعبير عن الأفكار والحوافز دون كف ودون خوف من سخرية الآخرين وهذا التعريف يتصف بالتعميم والشمول ويكاد يكون مرادفاً للصحة النفسية السليمة. أو كما يذكر هو صفة مميزة للإنسانية المتكاملة.[1]

تعد السمات الشخصية والاجتماعية للمبتكرين في الغالب مكتسبة وليست فطرية نظرا لارتباطها بمؤسسات الغرس الثقافي مثل الأسرة خصوصا دور المرآة، الام في التربية والتنشئة الاجتماعية وغرس قيم الضمير الجمعي، وايضا دور التعليم في تعزيز التعليم والتعلم من خلال المناهج الدراسية والجامعات المغربية بترسيخ ثقافة الإبداع والبحث العلمي، وتنمية الذكاء، الميول، والنقد البناء، وتعزيز سمات الشخصية المتزنة، واخيرا الإعلام ودوره في توجيه وترشيد الاتجاهات العامة والراي العام نحو قضايا الانفتاح والابداع.

تاريخيا فالثقافة المغربية بفعل الحضارات المتعاقبة (الأمازيغية، العربية، الأندلسية) تم الإسهام في تشكيل عقلية الابتكار لدى المغاربة.

عموما إن السمات هي عامة لكنها تختلف حسب الدرجات، فسمات الشخصية الابتكارية يقصد بها خصال الافراد التي نستنتجها من سلوكهم والتي تتسم بالدوام النسبي ويشترك في الاتصاف بها مختلف الافراد بدرجات متفاوتة.

من ببن السمات الشخصية والاجتماعية التي يتضمنها الفرد المغربي، والمتعلقة بالنتاج والعمل الابتكاري ما يلي؛

العبقرية: القدرة العقلية التي تمكن صاحبها من الوصول الى اكتشافات جديدة او اختراعات عظيمة في

1- محمد عبد العزيز، مدخل في سيكولوجية الابتكار: تطبيقات في مجال التربية الفنية، مكتبة الانجلو مصرية، مصر، 2023، ص 14-15.

مجال العلم، او الى انتاج اصيل في الفن[1].

الموهبة: هي استعداد طبيعي عند الفرد للتفوق في قدرة او أكثر من القدرات الخاصة كمجال العلم او الفن او الرياضة او الموسيقى.[2]

الذكاء: القدرة على التفكير المجرد - أي التفكير الذي يعتمد على التصورات الذهنية والرموز ومعاني الأشياء، يمكننا ان نقف عليه من خلال مؤشرات توحي به. ولإيجاد نسبة الذكاء فإننا نقسم العمر العقلي على العمر الزمني مع الضرب في مئة.[3]

هناك سمات اخرى يتحلى بها الانسان المبتكر منها ارتفاع مستوى الذكاء، النضج، الهدوء، الواقعية، الانعزال، والانسحاب من العلاقات الاجتماعية التي هي بدون فائدة، الجدية، قوة الدافع للعمل، والاستقلال في مجال العمل، الرغبة في التأمل عند انتاج النتاج الابتكاري، تحويل التوتر والانفعال الى ابداع وابتكار، القدرة على التركيز، والمثابرة، أيضا نجد: التفوق العقلي - الحساسية للمشكلات - المعرفة - النقد - التذكر - التحليل - التركيب - الطلاقة الفكرية ...

هناك صراع سيكو- اجتماعي حول الابتكار لدى الافراد والمجتمع، حول مدى قبول وتقبل الجديد الذي قد يطرحه الابتكار، وحول الخدمة التي ستسهلها عملية الابتكار.

في الغالب المبتكرين ينتمون الى النوع الإيجابي في اتجاه الصحة النفسية، ومن بين الصفات الإيجابية التي تنسب لهم نجد الثقة بالنفس، استقلال الرأي، الشجاعة، عدم التأثر بالآراء الشائعة او بتراث الماضي المتناقض، وكذلك قوة الإرادة.[4]

هناك عوامل مؤثرة على مستويات الابتكار منها الفروق في الاتجاهات والذكاءات المتعددة، سواء في متغير الفئات العمرية، والمستوى التعليمي خصوصا ان الثقافة تتكون من ثقافة شعبية واخرى عامة علمية.

ان الابتكارات التي يتم تمريرها من خلال التشجيع والمضمرة في الثقافة المغربية تكون في الغالب موجهة ومقصودة، سواء عبر البرامج والاستراتيجيات الوطنية والسياسات العمومية التي تدعم الابتكار، او عبر الشخص في حد ذاته من خلال تحقيق اهداف المشاريع الشخصية والمسارات المهنية.

المدخل الثاني: العملية والنتاج الابتكاري:

يركز هذا المدخل على عملية حصول النتاج، أي الكيفية التي يبتكر بها المبتكر، وهي العملية الابتكارية، إذ عرف هائيل " الابتكار بالقدرة على تكوين تركيبات جديدة أو تنظيمات جديدة. أيضا نقصد بها هي تلك العملية العقلية التي تؤدي الى ناتج ابتكاري"[5].

العملية الابتكارية هي ليست فطرية او موروثة، ولكنها ترجع الى رصيد المعلومات لدى الفرد. كما ترجع العملية الابتكارية الى ظروف التربية الجيدة، والأسرة المشجعة، والمجتمع الواعي الذي يغرس قيم العلم والبحث العلمي والأدبي والفني في نفوس ابنائنا، وينمي فيهم سمات المثابرة، الإصرار، وحب الاستطلاع والتجديد، والنضال

1- حسين عبد الحميد احمد رشوان، الاسس النفسية والاجتماعية للابتكار: دراسة في علم الاجتماع النفسي، المكتب الجامعي الحديث، 2000، الاسكندرية، مصر، ص 25.

2- المرجع نفسه، ص 30 .

3- المرجع نفسه، ص 131.

4- المرجع نفسه، ص 141.

5- المرجع نفسه، ص 83 .

العلمي والرغبة في الوصول بالمجتمع الى ذروة المجد وقمة الازدهار.[1]

ثم يستنطق هذا المدخل النتاج الابتكاري الذي يترك أثراً يمكن قياسه ماديا، وهو (النتاج لابتكاري)، الذي ينحت بانه انتاج وصياغة ما هو جديد، مع سواء عبر اعادة صياغة شيىء قديم وتجديده، او ابتكار ما لم يكن يوجد سابقا.

إن زمن تشجيع الثقافة المغربية الابتكار يتم بطريقة مستمرة، فمع التحولات والتغيرات التي طرأت على المجتمع المغربي صار البحث عن الجديد هو سمة الاستمرارية العيش.

وفي هذا السياق نتطرق الى مراحل العمل الابتكارية الابتكاري عند جليفورد بحيث يتضمن جوانب ثلاثة من التفكير: التعرف، الانتاج والتقييم. فنحن نتعرف على المشكلة التي تواجهما، ونحاول إنتاج شيء استجابة لهذا التعرف، ثم نقيم نواتجنا لنري إذا كانت كافية أم لا.[2]

اما بخصوص تلقي العمل الابتكاري، ففي نظرنا يرتبط بثلاث محددات اساسية وهي استقبال العمل الابتكاري ثم نجد اما الاعتراف به وتحقيق الانتشار او مقاومته وعدم قبوله، فحسب دي لا كروا فإن الاستجابات الابداعية التي تصدر عن بعض الافراد تخضع لتشجيع المجتمع او عقابه، ومن ثم تؤدي الى شيوع الابداع او اختفائه.[3]

هناك اختلاف النتاج الابتكاري بين المجتمعات والثقافات، فبعض المبتكرين والمبدعين في بعض المجتمعات قد يجدون حضهم، وتسمح لهم الظروف والمناخ الاجتماعي بالتفكير الحر، وتشجيع نمو القدرات الابداعية، وبالتالي ظهور الابداع والابتكار. وتعطي هذه الظروف الاجتماعية الفكرة والرأي والناتج بصفة عامة فرصة للتجريب، حتى وان بدا على الفكرة خروج عن المألوف، او الشائع، فتقل بالتالي عوامل الكف، ويزداد المفكرون الإبداعيون، ونتوقع نتاجا ابتكاريا، وعلى العكس قد يعوق هذا المناج الاجتماعي ظهور الابتكار، فيختفي الابتكار، ويتجلى تفاوت المجتمعات في مدى تقبلها لسلوك المبتكرين او رفضها له.[4].

ان العملية الابتكارية تتأثر، وتتحفز بالثقافة المغربية، ويحكمها الواقع الاجتماعي والظروف الاجتماعية التي يعيش فيها المبتكرون، سواء في الادب الشفهي مثل الامثال الشعبية حيث نجد من جد وجد، الحاجة ام الاختراع، او في القيم الدينية التي تدعو إلى الانفتاح والتعاون، او العبر، الاغاني الشعبية، القصص... التي تجعل من الخطأ والفشل والتجربة اساس بناء الحكمة والرزانة...

ان المؤسسات الاجتماعية، الثقافية، الصناعية والتربوية بما انها تحمل في عمقها ثقافة الانفتاح تقوم بدور هام في تشجيع الابتكار ونموه، فيتم تنشيط العقول وتدريبها على الابتكار، وتبني اساليب تقبل شيوع القيم الجديدة والتفتح، تعزيز نسق اجتماعي يشجع الديمقراطية وتقبل الراي الآخر، والمشاركة، تبني الموهبة وحرية النمو، اشاعة قيم التحول والتغير، تشجيع النقد البناء وتقبله، التعاطف العلمي مع الحقائق، وهذا يتحقق عبر الانفتاح على الثقافات الاخرى.

هناك تنوع في طبيعة ومجالات بروز الابتكار، فلا نجدها تتركز في مجال واحد (الاقتصاد مثلا) لكن ما الملاحظ أن هناك فسيفساء الابتكار في خضم عدة مجالات اقتصادية، صناعية، ثقافية، اجتماعية ...

1- المرجع نفسه، ص 83.

2- المرجع نفسه، ص 87.

3- المرجع نفسه، ص 154.

4- المرجع نفسه، ص 155.

المدخل الثالث: قيمة النتاج:

ان هذا المدخل يركز على القيمة المعطاة لذلك النتاج، أي الاستعدادات الابتكارية والتي تكشف عن نفسها من خلال الأداء على اختبارات ومقاييس الابتكار في القدرات الابتكارية. وحفاظا على الأمانة العلمية وجدنا طرحين اثنين مختلفين، وهما كالتالي؛

أ. هناك من يؤكد ان النتاج الابتكاري يحظى بقيمة كبيرة، ويتم قبوله من طرف انساق ووحدات المجتمع، ويشترط في ذلك ان يكون له تطبيق في الواقع. يؤكد (ماكينون) بأن الابتكار: " عملية تمتد عبر الزمان، تتميز بالأصالة وبالقابلية للتحقيق والأصالة. [1]

ويبرز هذا الطرح أن الابتكار هو ضروري ويصر على ان التنمية تتحقق عبر الابتكار.

ب. أما الطرح الثاني فهو مغاير، يقاوم الابتكار ويقر بعدم اهليته، وهنا وجدنا ارتباط لصيق بمعوقات الابتكار، بحيث نجد في الواقع جملة من العمليات المضادة تمثل ضغوطا تعمل بكيفية دالة على خفض الطاقة الابتكارية، فنجد مثلا الزملاء يلقون على المبتكرين الاهمال والصد والسخرية، الدونية والرفض، منهم من تعرض للتعذيب، النفي، الموت، القتل، الإعدام ....[2]

ان المجتمع دائما ما يحاول اعادة انتاج نفس الثقافة السائدة بلغة بيير بورديو، وبالتالي مقاومة التغيير، ويخاف من الفشل والمخاطرة. ايضا نجد امثلة شعبية مثل زمار الحي لا يطرب، والاستهزاء والسخرية على المبتكرين، والفهم المغلوط للأفكار فنجد من يعزز عدم التغير بأطروحات فيما ليس بسياقها مثل قولة ابن خلدون " المغلوب مولع ابدا بتقليد الغالب".

استمرارا لنفس المنوال في هذا المدخل الأخير، علاقة بمدى اشعاع الابتكارات، او نسيانها في الرفوف على اختلاف انواعها، وجدنا انه فعلا يتم الحفاظ على هذه الابتكارات ورقمنتها وارشفتها الكترونيا، مع اشعاعها خصوصا في مواقع التواصل الاجتماعي.

خلاصة:

ان الثقافة المغربية تشجع فقط الابتكار الذي ينطلق من الخصوصيات المحلية في التصور والابداع والإشعاع... في إطار التنمية المستدامة، والاعتماد على الموارد المحلية في جميع المستويات والمجالات.

يمكن لاي شخص ان يكون مبتكرا عليه فقط ان يركز على تلاث عناصر اساسية:

- تنمية الجوانب السيكو- اجتماعية لشخصيته.
- لا يجب الانطلاق من الأفكار الغريبة والغير مألوفة، بل من الثقافة المحلية والاعتيادية ومحاولة تطويرها وتجديدها، والانفتاح على ما يخدم النتاج الابتكاري ويحافظ على اصالة الفكرة الابداعية.
- الابتكار لا يجب دائما ان يكون ذو فائدة حسية.

1- طارق عبد الرؤوف، الاتجاهات الحديثة للموهوبين والمتفوقين: رعايتهم- خصائصهم- اكتشافهم، المكتبة الأكاديمية، 2009، مصر، ص 55.

2- حسين عبد الحميد احمد رشوان، الاسس النفسية والاجتماعية للابتكار: دراسة في علم الاجتماع النفسي، المكتب الجامعي الحديث، 2000، الاسكندرية، مصر، ص 117.

لائحة المصادر والمراجع:

- أحمد محيي خلف صقر، العوامل الثقافية والاجتماعية وتأثيرها على الخطط الاستراتيجية لتشغيل الشباب في بعض دول العالم: دراسة تحليلية وميدانية، دار التعليم الجامعي، 2019، مصر.
- أسامة خيري، إدارة الابداع والابتكارات، دار الراية للنشر والتوزيع، الطبعة الاولى، 2012، عمان.
- محمد عبد العزيز، مدخل في سيكولوجية الابتكار: تطبيقات في مجال التربية الفنية، مكتبة الانجلو مصرية، 2023، مصر.
- حسين عبد الحميد احمد رشوان، الاسس النفسية والاجتماعية للابتكار: دراسة في علم الاجتماع النفسي، المكتب الجامعي الحديث، 2000، الاسكندرية، مصر.
- طارق عبد الرؤوف، الاتجاهات الحديثة للموهوبين والمتفوقين: رعايتهم- خصائصهم- اكتشافهم، المكتبة الأكاديمية، 2009، مصر.